الفصل الأول

من الميلاد إلى الهجرة

محمد قبل البعثة

وُلد محمد في مكة، عاصمة الجزيرة العربية، وكانت مدينة كبيرة، يحج إليها العرب لزيارة البيت الحرام، كما كانت مركز التجارة بين اليمن والشام وفارس.

ووالد محمد هو عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف[١] وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً[٢].

قال ابن هشام صاحب السيرة النبوية، بعد أن تابع النسب الشريف إلى آخره: "فرسول الله ﷺ أشرف ولد آدم حسباً، وأفضلهم نسباً، من قِبل أبيه وأمه ﷺ"[٣].

وقد مات عبد الله، والد محمد، قبل أن يولد، فلم ير والده، ولم يراه والده[٤] كان يزور أخواله من بني النجار في يثرب، فمات هناك.

وقد اختُلف في تحديد يوم ميلاد محمد، فقيل إنه ولد في ١٢ ربيع الأول، وهو الأرجح، (أي في ٢٠ أبريل ٥٧١م).

وبعد وفاة والده كفله جده عبد المطلب وأسبغ عليه حبه ورعايته، وكان يدعوه ولده، فيقول ابني ذهب وابني جاء، وكان عبد المطلب يتولى الرفادة و السقاية في الحرم، وهو يومئذ أشرف منصب في مكة[٥] قال ابن هشام: "كان يوضع لعبد المطلب

---

(١) فتح الباري؛ رقم ٣٨٥٠ - ٧ / ١٦٢ ، حيث النسب الشريف بتمامه.
(٢) سيرة ابن هشام؛ ١ / ١٥٦ .
(٣) سيرة ابن هشام؛ ١ / ١١٠ والطبقات الكبرى لمحمد بن سعد؛ ١ / ٧٥ .
(٤) فتح الباري؛ رقم ٣٨٥١ - ٧ / ١٦٤ .
(٥) سيرة ابن هشام؛ ١ / ١٣٦ - ١٤٢ .

obeikandl.com

فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليهم، لا يجلس عليه أحد إجلالاً له." وأما رسول الله، وهو لا يزال غلاماً، فكان يجلس عليه فيؤخره أعمامه، فإذا رأى عبد المطلب ذلك منهم قال "دعوا ابني، فوا لله إن له لشأناً، ثم يُجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يصنع." ولهذا حزن رسول الله ﷺ لوفاته، وكان لا يزال صغيراً في الثامنة من عمره(١).

وكان عبد المطلب يوصي ابنه أبا طالب برعاية محمد، وقد احترم وصية أبيه وكفل محمدا بعد وفاة أبيه خير كفالة.

وقد توفيت أمه قبل وفاة جده، حين كان محمد في السادسة من عمره؛ توفيت بـ"الأبواء" بين مكة والمدينة ودفنت هناك. وكانت قد سافرت مع ولدها الصغير – محمد – إلى يثرب لتزيره أخواله من بني عدي بن النجار، فماتت وهي راجعة إلى مكة(٢).

واشتغل الصبي محمد بعمل عمه وكافله أبي طالب الذي كان رجلاً تاجراً. وحين بلغ حوالي العشرين استأذن عمه في ممارسة تجارة خاصة مستقلاً عن تجارة عمه، فأذن له وشجعه. وكانت بضاعة محمد هي الملابس، وقد شارك رجلاً اسمه السائب ابن أبي السائب، شهد له ﷺ بأنه كان: "لا يدارئ ولا يمارئ" أي أنه كان على وفاق مع شريكه لا يعارضه ولا يجاريه بالباطل.

وتعبيراً عن امتنانه لعمه أبي طالب، استأذنه محمد في أن يضم إليه ولده علياً، لتخفيف أعباء الحياة عن العم الطيب، ووافق أبو طالب فصار علي ربيب رسول الله وتلميذه النجيب.

ويلاحظ المشتغلون بسيرة محمد ندرة الأخبار عن حياته قبل البعثة، وغزارتها

(١، ٢) سيرة ابن هشام؛ ١ / ١٧٩

بعدها، وأبرز الأخبار عن تلك الفترة هو خبر زواجه من خديجة، وقد ذكر هو نفسه بعض الأخبار عنها. ومن ذلك أنه في سن الرابعة عشر شهد ما يسمى "حرب الفجار". وقال عليه الصلاة و السلام عنها وعن إسهامه فيها: "كنت أنَبِّل على أعمامي" أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها، وكانت الحرب بين قريش وبين قيس عيلان(١).

وأسهم محمد فى نقل الحجارة لإعادة بناء الكعبة (٢)، وقد ساعده على ذلك بنيان بدنه القوي. ولقد صارع "ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب" الذي عرف عنه أنه كان أشد رجالات قريش قوة، وذات يوم قال النبي لـ" ركانة " الذي لم يكن قد آمن به بعد " : أرأيت إن صرعتك، أتعلم أن ما أقول حق ؟" قال نعم. ثم صارعه النبي، وهزمه (٣).

ثناؤه على حلف الفضول

وكان حلف الفضول بين قبائل قريش لمنع الظلم وإنصاف المظلومين مأثرة نادرة لهم، وقد شهده رسول الله ﷺ وأثنى عليه لما يهدف إليه من قيم، وقال: "ما أحب أن لي به حمُر النعم، ولو أدعَى به في الإسلام لأجَبْت"(٤).

– وطبق محمد ﷺ أهم بند في ذلك الحلف النبيل، وهو منع الظلم، فقد جاءه رجل من "إراش" يشكو إليه أبا جهل، أحد زعماء مكة الكبار، الذي ابتاع منه إبلاً، ثم أبَى أن يعطيه ثمنها، وعلى الفور ترك النبي المسجد، وتوجه إلى بيت أبي جهل، وضرب عليه بابه، وخرج أبو جهل، وفوجئ بمحمد يقف في مواجهته! وامتقع لونه واضطرب! وأمره النبي أن يعطي الرجل حقه، ففعل دون جدال، وذلك لما كان لمحمد من المهابة لدى الجميع(٥).

---

(١) سيرة بن هشام؛ ١ / ١٤٨ - ١٨٦ .
(٢) البخاري؛ فتح الباري؛ رقم ٣٨٢٩ - باب بنيان الكعبة؛ ٧ / ٤٥ .
(٣) سيرة بن هشام؛ ١ / ٣٩٠ ، ٣٩١ . (٤) سيرة ابن هشام؛ ١ / ١٣٣ ، ١٣٤ .
(٥) نفسه؛ ١ / ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

obeikandl.com

وأراد الله تعالى أن يكون تكريم محمد على أيدي الجاهليين أنفسهم! فحين اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه بعد تجديد بناء الكعبة المشرفة، وكادت الحرب تشتعل بينهم، قال أبو أمية بن المغيرة للناس: لندَع لأول مَن يدخل من باب هذا المسجد أن يقضي بيننا، فرضوا بذلك، ثم كان محمد ﷺ هو أول مَن دخل، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين! فأمرهم بإحضار ثوب، ثم قال بعد أن وضع الحجر فيه: "لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً"، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثم بَنى عليه" (١).

وهكذا شهد له القوم بالأمانة، وتم الأمر بسلام، وزال شبح الحرب.

زواجه من خديجة

وفي سن الخامسة والعشرين تزوج ﷺ خديجة بنت خويلد، وكانت امرأة تاجرة ذات مال وشرف، وكانت خديجة قد استخدمت محمداً ليدير لها تجارتها، بعد أن عرفت عنه الأمانة والصدق وكريم الأخلاق، ولا بد أنها عرفت عنه أيضاً أنه صاحب خبرة تجارية، لأن سمو الأخلاق وحده لا يكفي لنجاح التاجر.

وخرج محمد بمال خديجة إلى الشام، وعاد بأرباح وفيرة.

ومالت نفس خديجة إلى محمد، فأرسلت إليه تخبره أنها ترغب في الزواج منه، وكانت خديجة في ذلك الوقت من أرفع نساء قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً. وكان أشراف قريش يتمنون أن تقبل الزواج بأحدهم.

وأنجبت خديجة من محمد: القاسم، والطيب، والطاهر، ورقية، وزينب وأم كلثوم، وفاطمة(٢).

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ١٩٢.

(٢) سيرة ابن هشام؛ ١ / ١٩٠.

وكانت خديجة رضي الله عنها رفيقة محمد في الحياة، وفي الجهاد من أجل الإسلام حتى ماتت، وكانت أعظم نسائه وأحبهن إلى قلبه.

وقد رضي بها ﷺ على الرغم من أنها كانت تكبره بأكثر من عشر سنوات، فأثبت أنه كان رجلاً رزيناً حكيماً منذ أن كان في العقد الثالث من عمره.

لقاء جبريل

واستقرت حياته مع خديجة، وقد اعتاد أن يقضي بعض وقته في شهر رمضان كل عام في غار حراء، وكان الفقراء يقصدونه ليتصدق عليهم، وفي ذات يوم جاءه الملاك جبريل بأول آيات من القرآن ثم انصرف، وعاد محمد إلى بيته مرتعداً، وأخبر خديجة الخبر فصدقته دون تردد، وقالت: "أبشِر يا ابنَ عم واثبت! فوالذي نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة."(١) وفي خبر آخر قالت: "والله ما يُخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتحمل الكَل، وتكسب المعدوم وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق"(٢).

فكان مبعثه في ١٧/٩ (رمضان) من سنة ٤١ من ميلاده الشريف (٦/٨/٦١٠م)(٣)

فهذا برهان أخلاقي، لا إعجازي، ولا غيره، فعند خديجة رضي الله عنها، صاحب هذه الفضائل الأخلاقية الرفيعة لا يمكن أن يكذب أو يخادع، ولا يمكن أن يخزيه الله تعالى.

وشرع النبي ﷺ في الدعوة سراً، خشية أن يصطدم بجبابرة الشرك في مكة. وقد آمن به عدد قليل من الرجال على رأسهم أبو بكر بن أبي قحافة، الذي دعا عثمان

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٢٣٨ .
(٢) البخاري؛ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.
(٣) الندوي؛ السيرة النبوية؛ ص ١٠٢ .

ابن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة ابن عبيد الله، ثم جاء بهم إلى رسول الله ﷺ ليبايعوه على الإسلام.

ومن المهم أن نتذكر أن ثقة أولئك الرجال المرموقين في صدق محمد هي التي أقنعتهم باعتناق الإسلام، فلم يكن قد تنزل من القرآن إلا آيات قليلة، ولم يُؤثَر عن أحد منهم أنه قال: إنني آمنت بمحمد نبيًّا لأنني وجدت في آيات القرآن إعجازاً بيانيًّا أو براهين عقلية على صدقه وصدق رسالته!

وتلا تلك المجموعة من أشراف قريش مجموعة أخرى لا تقل عنهم في المكانة والشرف، منهم أبو عبيدة بن الجراح والأرقم بن أبي الأرقم وعثمان بن مظعون وعبيدة ابن الحارث بن المطلب بن عبد مناف وسعيد بن زيد وخباب بن الأرت وعبد الله ابن مسعود وعمار بن ياسر وصهيب وأبو سلمة؛ وعمير بن أبي وقاص ومسعود ابن القاري، وأسماء وعائشة ابنتا أبي بكر.(١)

الدعوة من الخفاء إلى العلانية

وبعد ثلاث سنوات من التخفي بالدين الجديد أمر الله تعالى نبيه بإظهاره فقال تعالى ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ (الحجر: ٩٤). وقال أيضًا ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ (الشعراء: ٢١٤).

يقول القرطبي: "لما نزلت هذه الآية – رقم ٢١٤ من سورة الشعراء – دعَا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا، فعَمَّ وخصَّ فقال: "يا بني كعب بن لؤي! أنقذوا أنفسكم من النار! يا بني مرة بن كعب! أنقذوا أنفسكم من النار! يا بني عبد شمس! أنقذوا أنفسكم من النار! يا بني عبد مناف! أنقذوا أنفسكم من النار! يا بني هاشم! أنقذوا أنفسكم من النار! يا بني عبد المطلب! أنقذوا أنفسكم من النار! يا فاطمة!

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٢٥٠ - ٢٥٥.

أنقذي نفسك من النار! فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأبُلُّها ببَلالِها."(١).

وأحسب أن النبي ﷺ قد بدأ دعوته بقراءة بعض آيات القرآن الكريم، لأن ذلك هو منهجه في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فالخبر فيه اختزال وحين قابلوه بالرفض دعاهم إلى إنقاذ أنفسهم من النار. والقرآن الكريم يسجل هذه المواجهة، فقال جل شأنه: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾

(الأنعام: ٦٦)

وقال أيضاً: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (فاطر: ٢٥).

وقال جلَّ شأنه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ (الفرقان: ١١)

وأخبر الله تعالى نبيه وواساه فذكر له أن أنبياء الله من قبله واجهوا التكذيب مثله. قال تعالى ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء: ١٠٥)، وقال ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ﴾ (ص: ١٢).

فتكذيب الصادق مؤلم للنفس أشد الألم، لكنه يتخفف من الألم حين يعلم أنها سُنة إلهية، وتجربة دينية عاشها الأنبياء كما يعيشها هو.

ولم يقف المشركون عند حدود التكذيب، بل تعدوه إلى العدوان على المسلمين والأذى لهم، وقتْل بعضهم. ولم يجد النبي ﷺ مفرًّا من البحث عن مَحضِنٍ آمنٍ لهم، فأشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة، ثم إلى يثرب، ثم هاجر هو نفسه بعد أن هاجر معظم أتباعه إلى إخوانهم هناك.

ومن المؤسف أن أعداء الإسلام عبر العصور كذبوا النبي ﷺ بالحجج نفسها التي رددها الجاهليون مع بعض الزخارف التي راجت في ثقافة كل عصر، كفكرة التطور في عصرنا(٢).

---

(١) القرطبي؛ تفسير الآية ٢١٤ من سورة الشعراء.

(٢) راجع كتابي: نقد أعلام الفكر المصري المعاصر نشر مكتبة وهبة - القاهرة؛ ص ٥ - ٤٢.

obeikandl.com

التعذيـــب

انتشر الإسلام انتشاراً محدوداً في مكة، وغضبت قريش من ذلك، وحرضت كل قبيلة على مَن أسلم من أبنائها: "فوثبت كل قبيلة على مَن فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم"[١]. وذلك لعجزهم عن الدفاع عن الوثنية بالحجج العقلية.

ولم يَسْلَم نبي الله ﷺ من الأذَى، فقد: "أغْرُوا برسول الله ﷺ سفهاءَهم فكذبوه وآذَوْه، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون."

وذات يوم حاول بعضهم قتله،[٢] لولا تدخل أبي بكر الذي صرخ في وجوههم قائلاً: "أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟" ونال الصديق يومئذ أذى كبير من كثرة ما جذبوه بلحيته![٣].

– وفي يوم آخر مَرَّ أبو جهل برسول الله ﷺ وهو عند الصفا: "فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره." ولم يرد عليه النبي. ولَمَّا علم حمزة بن عبد المطلب بالأمر غضب وضرب أبا جهل بقوسه ضربة شجت رأسه.[٤] وأعلن حمزة إسلامه، فكان قوة كبيرة قادرة على الدفاع عن النبي وضعاف المسلمين رضى الله عنه.

ومن أشهر حوادث التعذيب ما صنعه أمية بن خلف ببلال بن رباح رضى الله عنه، حيث كان يأخذه وقت الظهيرة إلى بطحاء مكة ثم يطرحه على ظهره، ويضع الصخرة العظيمة على صدره، بُغْيَة إثنائه عن الإسلام[٥]. ولم يرحمه من ذلك العذاب الأليم إلا أبو بكر الصديق، وذلك بأن اشتراه وأعتقه.

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٢٦٨ ، ٢٦٩ .
(٢) نفسه؛ ١ / ٢٩٠ .
(٣) نفسه؛ ١ / ٢٨٩ .
(٤) نفسه؛ ١ / ٢٩٢ .
(٥) نفسه؛ ١ / ٢١٧ ، ٢١٨ .

وعن عبد الله بن عباس قال إن المشركين كانوا يضربون الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ: "ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضُّرِّ الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنه، حتى يقولوا له: أللات والعُزى إلهك من دون الله؟! فيقول: نعم! حتى إن الجُعل ليمر بهم فيقولون له: أهذا الجُعل إلهَك من دون الله؟! فيقول: نعم! افتداءً منهم مما يبلغون من جَهْد."(١).

ومات أبو طالب قبل الهجرة بثلاث سنوات. وماتت خديجة في السَّنة نفسها، فسُميَ ذلك العام عام الحزن، وبفَقْد عمه خسر النبي والمسلمون قوة كبيرة كانت تكبح جماح المشركين، فتجاسرت قريش على رسول الله ﷺ وضاعفت الأذى له ولأتباعه من المؤمنين؛ وبلغت جسارتهم عليه أن اعترضه يوماً أحد سفهائهم ونَثَرَ على رأسه تراباً! (٢).

ولكن لماذا كذَّبت قريش النبي وهو الذي شهدت له بالأمانة، ولم تعهد أنه كذب على أحد؟!

كان أهم أسباب التكذيب أنه بشر وليس ملاكاً؛ وقد سجل القرآن الكريم قولهم ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ (الإسراء: ٩٤). وقالوا ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ (التغابن: ٦). فَمَنْ كان منهم يعترف بالملائكة كان يريد أن يتنزل عليه مَلَكٌ من السماء! ومن كان لا يعترف بهم كان يقول الشفيع والوسيلة إلى الله هم الأصنام! (٣).

والسبب الثاني للتكذيب هو الإيمان بالبعث والحساب و الجزاء في الآخرة، فقد كان العرب يؤمنون "بالطبع المحيي والدهر المفني"، ولم يستطيعوا تخيل إمكان الحياة بعد الموت، وهذا هو الموقف نفسه اليوم عند الفلاسفة الماديين الغربيين،

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٣٢٠ - والجُعل هو الجعران.
(٢) نفسه؛ ١ / ٤١٦.
(٣) الشهرستاني؛ الملل والنحل؛ ٣ / ٨١.

obeikandl.com

الوضعيين والماركسيين والوجوديين والبراجماتيين. وقال الجاهليون العرب، كما سجل القرآن ﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (الإسراء: ٩٨). ورد عليهم القرآن بقول الله تعالى ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (يس: ٧٨، ٧٩).

والسبب الثالث هو المخاوف من صعود نجم بني هاشم فوق غيرهم من قبائل قريش والعجز عن منافستهم، لأن من المستحيل أن يأتوا بنبي كنبي بني هاشم!

والسبب الرابع هو المصالح الاقتصادية التي هددها الدين الجديد بما بشر به من تحريم الربا والميسر، وإنصاف الرقيق، وجعل التقوى معياراً للمكانة الفردية، ونبذ العنصرية القبائلية، وغير ذلك من المبادئ.

والسبب الخامس هو عقيدة التوحيد، وقد صُدم الوثنيون صدمة شديدة حين طالبهم النبي ﷺ بتحطيم أصنامهم والإيمان بإله واحد لا شريك له وقالوا ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ (ص: ٥) وعز عليهم أن يقال إن عَبَدَةَ الأوثان من آبائهم مصيرهم جهنم وبئس المصير، والحق أن أهل الفترة من المشركين لن يعذبوا لقول الله تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (الإسراء: ١٥) ولكن يبدو أنهم لم يعرفوا هذه الحقيقة.

وكان من أسباب نفور المشركين من محمد ودينه أنه كان يدعو إلى التقيد بعقائد جديدة عليهم، وإلى الالتزام بقيم أخلاقية رفيعة، كانت تصادم العادات الجاهلية السائدة، وكان أدعياء النبوة على علم بهذه الحقيقة، ولذلك لجأوا إلى إعفاء الناس من بعض الواجبات والقيم لإغرائهم باتباعهم، هذا ما فعله مسيلمة الكذاب، الذي أعفى قومه من صلاتي العشاء والفجر، في نهاية عهد النبوة المحمدية، وما فعله القادياني في الهند في العصر الحديث حين حرم الجهاد ضد الاستعمار البريطاني.[1]

(١) أبو الأعلى المودودي؛ ما هي القاديانية؟ ص ١١٠، ١١١.

وما فعله نبي البهائية الزائف الذي خفف العقوبة على الزناة بجعلها تسعة مثاقيل من الذهب! [1].

فشل الإغراء بعد فشل التعذيب!

بعد فشل التعذيب والقتل لجأت قريش إلى الإغراء، فأرسلت عتبة بن ربيعة أحد أبرز زعمائها إلى النبي ﷺ، ليحاول إثناءه عن الدعوة.

قال عتبة للنبي: " يا ابن أخي! إنك منا حيث قد علمتَ من السِّطَة في العشيرة (أي الشرف) والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فَرَّقت به جماعتهم وسفَّهتَ به أحلامهم، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم وكفَّرتَ به مَن مضى من آبائهم! فاسمع مني أعرضُ عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، قال (الراوي): فقال له رسول الله ﷺ: "قل يا أبا الوليد أسمَع!" قال: يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً! وإن كنت تريد به شرفاً سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك! وإن كنت تريد به مُلكاً ملَّكناك علينا! وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّاً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه .." .

ورد رسول الله ﷺ قائلاً: ﴿ **حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ** ﴾ (فصلت: ١-٥) إلى قوله تعالى ﴿ **فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ** ﴾ (فصلت: ٣٨). وفي هذا الجزء من السورة من الوعد والوعيد ما تهتز له الجبال! فعاد عتبة إلى قومه ينصحهم بترك محمد وشأنه[2].

---

(١) صالح كامل وعبد العزيز شرف؛ أضواء على القاديانية؛ ص ٢٠٨.
(٢) سيرة ابن هشام؛ ١/ ٢٩٣، ٢٩٤.

الصمود العظيم على مواصلة الدعوة

ولما دعاه عمه إلى الكف عن الدعوة لتجنب الصدام مع المشركين قال ﷺ: "ياعم! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته"(١).

بهذا الإصرار العظيم والإرادة الفولاذية الماضية، رد النبي ﷺ على أبي طالب حين طلب إليه الكف عن الدعوة لدين الله، اجتناباً لأذى قريش.

المقاطعة

ولم يتوقف المشركون عن حربهم ضده، وظلوا يعذبون كل من يسلم، ويسجنون بعضهم. ثم لجأوا إلى المقاطعة الشاملة للمسلمين، وكتبوا وثيقة بألا ينكحوا إليهم، ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم. **ثم علقوا الوثيقة أو الصحيفة** في جوف الكعبة.

وصمد محمد ﷺ وأصحابه ولم يهتزوا أمام قوة المقاطعة التى استمرت عامين.

وثار بعض أشراف قريش ضد الصَحيفة، وتحللوا من المقاطعة، وقد وجدوا أن الأَرَضة أكلت الصحيفة ولم يبق منها سوى اسم "الله".

وانتصر المسلمون وعادوا لممارسة حياتهم الطبيعية.

ويعد ذلك الصمود العظيم للنبي ﷺ دليلاً قويًّا على صدقه، ولو كان كاذباً لكان تراجع قليلاً، أو كثيراً، وهو يرى أتباعه يتساقطون من شدة الجوع، ويوشكون على الارتداد عن دينهم، لكنه لم يتزحزح عن دينه قيد أنملة وكذلك أتباعه العظام المجاهدون الصابرون.

الهجرة النبوية إلى يثرب: حكمة ومعجزة

وتعتبر هجرة النبي ﷺ من مكة المكرمة إلى يثرب أنموذجاً للشجاعة في مواجهة

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٢٦٦

obeikandl.com

الخطر، وفي دقة التخطيط والتدبير، وقد اشترك في تنفيذ الخطة خمسة أفراد تحت إمرة النبي ﷺ، هم: علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، وأسماء بنت أبي بكر، وأخوها عبد الله بن أبي بكر، وعبد الله بن أريقط، وعامر بن فهيرة.

ومن المدهش حقًّا أن يظل أمر الهجرة سرًّا على الرغم من تعدد المشاركين فيها، ومنهم رجل مشرك – هو عبد الله بن أريقط – وعلى الرغم من الثورة التي اشتعلت في قلوب المشركين في مكة، وتهديداتهم لأسرة أبي بكر، وعلى الرغم من الجائزة الكبرى التي رصدوها لمن يدلهم على محمد! وإذا كان علي بن أبي طالب أعظم مِنْ أن يُفشي سرًّا للنبي، فإن أسماء بنت أبي بكر وهي فتاة رقيقة، كان من الممكن نظريًّا أن تضعف أمام التهديدات والضرب، وتقول شيئاً يوقفهم أو يكف أذاهم عنها. وكذلك عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر، لكن الجميع كتم السر كتماناً تامًّا، وكان ذلك هو سر النجاح.

والنبي ﷺ هو الذي اختار أولئك الأفراد، ومعه صديقه أبو بكر الصديق، من بين كثيرين من الرجال والنساء في مكة المكرمة.

وكان عبد الله بن أبي بكر عُرْضةً لانكشاف أمره، لأنه كان يتردد على غار ثور يحمل أخبار المشركين إلى النبي ﷺ وأبي بكر الصديق، والأرجح أنه كان مُراقَباً من قِبل المشركين.

وكانت أسماء مثل أخيها، تتردد على الغار حاملة الطعام إليهما، وتتعرض للملاحقة والانكشاف.

ومن المثير للإعجاب والدهشة أن أحداً لم يكشف أمرها أو أمر أخيها! وقد كانت غالباً تحت المراقبة اليقظة.

وربما كان دور عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر، هو الذي غَشَّى على حركة

أسماء وعبد الله، فقد كان يرعى الأغنام في الطريق إلى الغار لكي يمحو آثار أقدامهما.

يقول المسلم المؤمن بنبوة محمد: إنها رعاية إلهية تلك التي ضمنت النجاح للهجرة، والقرآن الكريم يقول﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا** ﴾ (التوبة: ٤٠). وهذا هو التفسير الوحيد الممكن لكل الغرائب التي حدثت في الهجرة.

ويقول غير المسلم إنها الحكمة المحمدية التي دبَّرت وخططت، واختارت الرجال والنساء، وحددت المواقيت والغايات بدقة، ولذلك أفلح محمد وأخفق أعداؤه. لكن هذا لا يفسر ما أشَرتُ إليه في أعمال أسماء بنت أبي بكر وعبد الله وعامر بن فهيرة. وفضلاً عن هذا، هو لا يفسِّر ما جَرى في الغار، وخصوصاً إغلاق العنكبوت لباب الغار.

ولا مفر أمام الباحث الموضوعي من الاعتراف بدقة التدبير، والتنفيذ، على أسس واقعية احترمت الأسباب والمسببات، ولكنها كانت مشمولة برعاية إلهية عبَّر عنها القرآن الكريم بالجنود الذين أيَّدوا النبي دون أن يراها البشر.

أي أن الحكمة المحمدية دُعِّمَت بمعجزة إلهية[١].

ولقد عاش محمد ثلاثة وستين عاماً، خالط فيها المئات من العرب واليهود والنصارى، فلم يحدث قط أن اتهمه أحد بالكذب.

وقبل أن يلقى الرفيق الأعلى كان قد أنشأ دولة وأسس أمة، وبعيد وفاته وقع الزلزال الأكبر في بناء الأمة، إذْ ارتدت معظم القبائل وتمردت، لكن تلاميذ محمد

---

(١) سيرة ابن هشام: ١ / ٤٨٠ - ٤٩٢، والطبقات الكبرى لابن سعد: ١ / ٣٢٠.

العظام تصدوا للردة، وحفظوا للأمة كيانها بقيادة الزعيم العظيم أبو بكر الصديق رضى الله عنه.

حياة محمد والكمال الإنساني

وفي ختام دراسته العلمية الدقيقة العميقة، الشاملة، يقول الدكتور محمد حسين هيكل إن النبي محمد عاش "حياة إنسانية بلغت من السمو غاية ما يستطيع إنسان أن يبلغ، وكانت لذلك أسوة حسنة لمن هداه القَدَر أن يحاول بلوغ الكمال الإنساني من طريق الإيمان والعمل الصالح، وأي سمو في الحياة كهذا السمو الذي جعل حياة محمد مضرب المثل في الصدق والكرامة والأمانة كما كانت بعد الرسالة: كلها التضحية في سبيل الله وفي سبيل الحق الذي بعثه الله به، تضحية استُهدِفت حياته من جرائها للموت مرات، فلم يصده عنه أن أغراه قومه، وهو في الذروة منهم حسباً ونسباً، بالمال وبالملك وبكل المغريات"(١).

* * *

(١) حياة محمد؛ ص ٥٨٣.

obeikandl.com